التكفير الإرهابي ايديولوجية التخلف؟

سعد الله مزرعاني*

يمكن التأريخ لبداية المرحلة التي يمر بها العالم اليوم بإنهيار الاتحاد السوفياتي قبل حوالي دزّينتين من السنوات. كان العالم محكوماً، حتى ذلك التاريخ، بالثنائية القطبية ممثلة بحلف «الناتو» الذي تقوده الولايات المتحدة الأميركية، وبحلف «وارسو» الذي يتزعمه الاتحاد السوفياتي. أحدث الانهيار السريع والمدوي للحلف الأشتراكي اختلالاً استغله القطب الاول، بشكل غير مسؤول من وجهة نظر الامن والاستقرار في العالم، وكذلك فيما يتصل ببعض مكتسبات العدالة والحرية والتنمية والحقوق السياسية والاجتماعية التي تكرست وتعززت بفعل النضال وبالإستفادة من التناقضات بين الحلفين والنظامين الرأسمالي والإشتراكي.

كان المخاض الداخلي في الاتحاد السوفياتي والذي تفاقم في اواخر ثمانينيات القرن الماضي، هو ما استدرج القيادة العراقية، آنذاك، لتنفيذ مغامرة احتلال الكويت، وهو الذي سهّل، من ثمّ، تشكيل «تحالف دولي» تقوده الادارة الأميركية، برئاسة جورج بوش الاب، لتحرير الكويت بهزيمة القوات العراقية فيها وملاحقتها الى الاراضي العراقية نفسها. يمكن القول في السياق نفسه، انه لولا اختفاء الاتحاد السوفياتي ومنظومته من المشهد الجيوسياسي كلياً، لما امكن غزو العراق عام 2003 بذرائع ملفقة وواهية لم تستطع أن تحجب اهدافاً اميركية (كان معظمها ماثلاً في «استراتيجية الامن القومي» التي اعلنها «البيت الابيض» الأميركي في شهر ايلول عام 2002). وكان، أيضاً، أغلبها متكرراً، وبصور استفزازية، على السنة واقلام صقور «المحافظين الجدد» الذين شكلوا عصب ادارة جورج بوش الابن طيلة ثماني سنوات (حتى عام 2008).

على امتداد ثمانية عشر عاماً كانت الاطماع المنفلتة، والمغامرات غير المحسوبة، والفوضى شبه الشاملة... هي ما يوجه معظم المواقف والسياسات الاميركية في العالم. في خلال ذلك تعطلت او شُلّت موسسات الشرعية الدولية، وتبدلت، الى حدود مقلقة، التوازنات والعلاقات الدولية، وتضررت جملة مفاهيم، وحتى قيم، تتعلق بضوابط الصراع وخصوصاً منها تلك التي تكرست في اتفاقيات جنيف في مرحلة ما بعد وما بين الحربين العالمتين الاولى والثانية، والتي انبثقت عن تجارب مريرة عانتها الدول والجماعات والافراد، ودفعت ثمنها البشرية غالياً.

لحسن الحظ أن المغامرات والهوس الأميركيين، وخصوصاً في مرحلة حكم «المحافظين الجدد» البوشية، لم يحققا ما رميا اليه. كانت التكلفة البشرية والسياسية باهظة والنتائج الاقتصادية فادحة ومقلقة (أزمة الانهيار الاقتصادي أواخر العام 2008 والمستمرة نسبياً حتى اليوم). هذا ما حاولت الاشارة اليه لجنة بيكر - هاملتون التي تشكلت للنظر في «اخفاقات الحرب في العراق». وهو ما حاولت هذه اللجنة تثبيته، ايضاً، في توصياتها التي رفعتها إلى الإدارة الأميركية وإلى الحزبين «الجمهوري» و«الديموقراطي» اللذين تمثلهما.

يمكن القول إن الحزب «الديموقراطي» الأميركي كان، موضوعياً، الاقدر على الاستفادة من التوصيات للوصول الى الحكم أولاً، ومن ثم لترجمة بعض روحية هذه التوصيات على يد الرئيس الجديد باراك اوباما الذي رفع شعار «التغيير» عنواناً لمعركته الرئاسية المنتصرة. منذ ذلك التاريخ تتلمس القوى الحاكمة في الولايات المتحدة، في تضامنها وتنافسها، سياسات ووسائل جديدة نسبياً. وتحاول ادارة أوباما أن تكرس ذلك في الحقل الخارجي الدولي، عبر بلورة مجموعة مبادئ تقوم على وضع نهاية للمغامرات العسكرية السابقة وعدم تكرارها، وعلى الاعتراف الواقعي بمحدودية القدرات الأميركية، وعلى بناء علاقات جديدة في العالم، مع الشركاء والخصوم والمنافسين، تنطوي على حد متزايد من التعاون والتوازن والتباين...

لكن هذا الأمر الذي كان سبباً لاتهام ادارة اوباما (وأوباما اساساً) بالتراجع والانكفاء والضعف من قبل «الاصدقاء»، لم يمنع بالمقابل، من استمرار تفاعل موجه الفوضى والجشع والمغامرة في مناطق عدة من العالم، خصوصاً منها التي تعيش ازمات متواصلة ومستعصية كمنطقة الشرق الاوسط. ففي هذه المنطقة الاكثر اضطراباً في العالم راهناً، تتراكم الازمات والملفات: من القضية الفلسطينية التي يمثل عدم ايجاد حل لها ذروة الامعان في جريمة قد تكون الاكبر والاطول عبر كل العصور، الى الازمة العراقية المستمرة منذ غزو ذلك البلد عام 2003 إلى «غزوة» «داعش» الراهنة، إلى مسائل التبعية والاستبداد واجهاض التطلع نحو التغيير والديموقراطية، إلى قضايا التفاوت الهائل ما بين ثروات هذه المنطقة وما تعانيه اكثرية شعوبها من الحرمان والفقر، الى مسائل التطرف والتكفير والارهاب (والتي لم تولد دون اسباب وسياقات متصلة اساساً بالاحتلال والسيطرة الاجنبية والاستبداد والبطر والفساد، وبالاعتماد على العصبيات والغرائز اساساً للاستقطاب وبناء مصادر القوة والسلطة، وبالاستهتار حيال القضايا والحقوق العامة والفردية في حقول السياسة والاقتصاد والاجتماع)...

يحتاج الوضع الذي تقدمت فيه الى الواجهة، وعلى نحو صاعق ومفاجئ، جماعات ارهابية ظلامية خطيرة، إلى الكثير من البحث في الاسباب وفي المسؤوليات. يمكن ان نتحدث هنا عن «ايديولوجية تخلف» تشق طريقها الان بقوة، الى جانب الايديولوجيات التقليدية الرأسمالية والاشتراكية و... لا تنطوي هذه التسمية على شتيمة (شهية الشتائم الان مفتوحة على مصراعيها!) ولا على محتوى اخلاقي. ربما هي التسمية الأنسب لما ولمن يتوحد تحت راياتها السوداء (!) الان، من عشرات الاف المهمشين اجتماعياً واقتصادياً (اشبه ببروليتاريا «رثة» حسب ماركس)، ومن ضحايا التعصب والجهل اللذين تغذيا، عبر قرون، بـ«افكار» التشدد والحصرية ونبذ الاخر، وايضاً من ضحايا القمع والجهل والإذلال والجوع والمرض والفساد...

تستطيع عبارات الشتيمة والادانة أن «تفشّ الخلق»، لكنها لا تكفي لانطلاق بحث جاد في أسباب ظاهرة العنف والتطرف والتكفير. الخلل الرئيسي إنما يقع في العلاقات التي سادت على مدى قرون. وهي علاقات لم تستطع قوى التغيير ان تبدّل فيها ومنها الكثير. تحدثنا عن انهيار الاتحاد السوفياتي الذي كان يمثل املاً. يجب البحث في «الاخفاقات» الاخرى الاخلاقية والدينية والحضارية والاقتصادية والسياسية...

إنه ملف ضخم وكامل: فمن اين نبدأ؟ ومن ثمّ، كيف نصوغ الإستخلاصات والبرامج والمهمات الصحيحة والضرورية؟!

* كاتب وسياسي لبناني

الأخبار

تأسست عام 1953
تصدر عن شركة «أخبار بيروت»

رئيس التحرير المؤسس
جوزف سماحة
(2006-2007)

رئيس التحرير ـ المدير المسؤول
إبراهيم الأمين

■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب ■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه ■ إقتصاد: محمد زبيب ■ محليات: حسن عليق ■ مجتمع: مهى زراقط ■ ثقافة وناس: أمل الأندري

■ رئيس مجلس الادارة ابراهيم الأمين ■ الادارة المالية: فادي خليل
■ الموارد البشرية: ريما اسماعيل

■ المكاتب بيروت ـ فردان ـ شارع دونان ـ سنتر كونكورد ـ الطابق السادس ■ تلفاكس: 01759500 01759597 ■ ص.ب 113/5963
■ www.al-akhbar.com
■ الإعلانات الوكيل الحصري شركة بروموفيكس 01/788200
■ التوزيع شركة الأوائل 15ـ 01/666314 ـ 03 / 828381

قضية موسى الصدر وجـ

أسعد أبو خليك*

عاماً بعد عام، تحيي «حركة أمل» ذكرى «تغييب» موسى الصدر. عاماً بعد عام، تكرّر قيادة الحركة بشخص نبيه برّي مطالبتها السلطات الليبيّة (القذافيّة والحاليّة والمستقبليّة) بضرورة الإعلان عن مصير موسى الصدر. لكن هل الحركة تبالغ في إعلاناتها ومناشدتها ومطالبتها؟ هل هذه نتاج تلك الثقافة الحركيّة التي رفعت شعارات في جنوب لبنان تقول ـ تحت صورة نبيه برّي ـ «يا ويلنا من بعدك»؟ هل الحركة تعاني من أزمة قيادة غائبة وحاليّة أو واعدة؟ هل الحركة تحتاج إلى قضيّة موسى الصدر كي تبرّر وجودها؟ جذبت قصّة اختفاء موسى الصدر عدداً من الباحثين وكُرّست لها أطروحات جامعيّة، وهناك عدد من الكتب عنه. الليكودي اللبناني، فؤاد عجمي، كتب عنه كتاباً جعله متنفّساً لأحقاده ضد الشعب الفلسطيني. بيتر ثرو وماجد حلاوي كتبا عنه كتابين بالإنكليزيّة، والكل مهتم بملابسات اختفائه. هي قصّة تُروى وإن شاب روايتها الكثير من الخزعبلات والأساطير والمزاعم الدعائيّة.

لو أن موسى الصدر لم يوجد، لكان هناك حاجة لإيجاده. هو صعد في أوّل الستينيات في حقبة كان العنصر الطائفي الشيعي مُغيّباً فيها تماماً. تصارعت الطائفيّات في لبنان ولم يُسمح للعنصر الطائفي الشيعي فيها. لكن الموضوع ليس طائفياً فسحب: كانت المرجعيّة الشيعيّة الدينيّة في لبنان تعاني من فراغ هائل بعد وفاة الإمام عبد الحسين شرف الدين. ولم يكن دور شرف الدين دوراً دينياً محضاً، كان زعيماً سياسيّاً ومصلحاً اجتماعيّاً ونشط في أعمال الخير. يكفي المدرسة الجعفريّة التي كُنّيت باسمه والتي خلّدته. الدولة اللبنانيّة وزعماء الإقطاع الشيعي تقصّدوا إهمال أهل الجنوب، لكن المدرسة الجعفريّة ساهمت بصورة أساسيّة ـ هي والمنح الجامعيّة في دول المعسكر الاشتراكي في ما بعد ـ في نهضة الجنوب اللبناني وأهله. لا فضل للدولة اللبنانيّة في أي من ذلك على الإطلاق. كان عبد الحسين شرف الدين ذا هالة عظيمة عند

> الصدر كان أبرع في السياسة من مهارته في إنتاج الفكر الديني

شيعة الجنوب وحتى عند غير الشيعة. كان صديقاً لجدّي وكان «صالون» منزل جدّي في صور يحمل صوراً لجدّي وعمّي أسعد (الذي توفي في سن مبكّرة) وصورة العالم شرف الدين. وكانوا في صور يصفون صفة القرابة بالنسبة إلى «المفتي» (ابنه، محمد جواد) فكان يُقال «ابن المفتي» أو «بنات المُفتي».

وجذب العمل الخيري شرف الدين، بالإضافة إلى زعماء المدينة الميسورين. لكن الزعامات التقليديّة (البائدة) غابت عن أعمال الخير والنفع. لم يترك آل الأسعد أو آل عسيران أو الزين أو غيرهم أي معلم يُقارن بالمدرسة الجعفريّة مثلاً. على العكس، كان كامل الأسعد يخشى من العلم والمتعلّمين، وكان يساوي بين المثقّف والمتعلّم وبين الشيوعي أو البعثي (كانت الشيوعيّة والبعثيّة منتشرة في كل أنحاء الجنوب في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ـ حتى أواخرها). في هذه السياق، ظهر موسى الصدر. لكن الصدر كان ظاهرة سياسيّة أكثر مما كان ظاهرة علمائيّة دينيّة. يتحدّث أتباع الصدر الحاليّون عن «فكر الإمام الصدر»، لكنه لم يترك أثراً فكريّاً أو دينيّاً واحداً، فيما ترك شرف الدين مراجع وكتباً مثّلت تراثاً في المرجعيّة الدينيّة. لكن الصدر كان بارعاً في السياسة وفي التنظيم وفي قراءة الصراعات السياسيّة اللبنانيّة، كما أن له هالة كاريزما عند الناس (وإن لم أرها عندما التقيته في طفولتي).

كانت القيادة السياسيّة التقليديّة عند الشيعة في لبنان مُتنازعة بين آل الأسعد وآل حمادة، وزاد من حدّة الصراع أن صبري حمادة كان متزوّجاً (زواجه الثاني) بشقيقة كامل الأسعد. المصاهرة لم تزد الصراع بين العائلتين إلا حدّة، كما فعلت المصاهرة بين كمال جنبلاط ومي أرسلان. الرجلان تصارعا على رئاسة المجلس في كل فترة الستينيات إلى أن ضمنها الأسعد في وصول عضو تكتّله («الوسط»)، سليمان فرنجيّة إلى سدّة الرئاسة. الصدر صعد في تلك الفترة. سلّم حمادة بقيادة الأسعد في الجنوب، كما سلّم الأسعد بقيادة حمادة في البقاع. تقاسم الإقطاع كان من سمات النزاع بين العائلتين. واحدة تحالفت مع الشهابيّة (احتقر فؤاد شهاب كامل الأسعد) وأخرى تحالفت مع التيّارات اليمينيّة بين الزعماء الموارنة.

عرف موسى الصدر أن عدة عوامل تجتمع كي تسمح ببروز دور له جديد: 1) جمّد الصراع بين الزعامتين أحوال الجنوب والبقاع وتركهم عرضة لمبادرات رمزيّة من قبل الدولة (ومعظمها لم يُنفّذ، مثل «مشروع الليطاني» أو «استصلاح الأراضي» ـ يُنصح بمراجعة مقالة جعفر شرف الدين في كشف دور كامل الأسعد في تجميد مشروع الليطاني في مجلة «الشراع»، 30 أيلول، 1991 ـ أو «مجلس الجنوب»، الذي حوّله الفساد الأسعدي والأملي في ما بعد إلى «مجلس الجيوب»). 2) افتقر الجنوب والبقاع إلى زعامة دينيّة قويّة. ظهر ذلك عام 1971 عندما زار الإمام الخوئي لبنان وهبّ شيعة لبنان من مختلف المناطق في تظاهرة لفتت أنظار الدولة لأن خمول واستكانة الشيعة كانا فرضيّة رسميّة عند أهل الساسة، وقد رسّختها زعامات الإقطاع في لبنان. ووفاة شرف الدين (بصرف النظر عن الكلام غير المؤثّق الذي قيل عن أنه أوصى بأن يخلفه الصدر بعد لقاء وجيز بينهما في زيارة قصيرة للأخير إلى لبنان في منتصف الخمسينيات) زادت من حاجة مدينة صور ـ على الأقل ـ لمرجعيّة دينيّة واجتماعيّة. 3) تفاقم حالة الإهمال والإفقار في الجنوب